

مذهب الملكات العقلية

وأثره في التربية والتعليم

للدكتور محمد مظهر سعيد

أستاذ علم النفس بمعهد التربية وكلية أصول الدين

وصلت في البحث السابق (١) عن أثر مذهب الملكات العقلية في التربية، وكيف اتخذته الفلاسفة أساساً للتعليم إلى جماعة الانسانيين؛ وسأتناول الآن آراء المرابي الألماني المجهتد (فروبل) صاحب الطريقة المعروفة لتعليم الاطفال، والتي يصح أن يقال عنها، في شيء من التساهل، إنها أول طريقة عملية، بنيت على الملاحظات الشخصية والتجارب العملية، لا على النظريات الفلسفية وحدها.

نظر (فروبل) إلى التربية على وجه العموم، وإلى العلوم التي تهيب الناشئة للنوع الذي يرتاح إليه من التربية والتعليم؛ نظرة فلسفية مشبعة بروح الاخلاص للدين، فجعل العلوم وسيلة لادراك مبلغ قدرة الخالق وتفهيم أسرار الطبيعة، ومن ثم وسيلة لمعرفة الله والتقرب إليه، فهو يقول في الرياضيات: «يحتاج الانسان إلى تقطة ثابتة ودليل أمين يرشدانه لدراسة الارتباط الثابت بين مظاهر الطبيعة المتنيرة؛ ولا يكون هذا بغير الرياضيات التي تبدو للعين المدققة كأنها المنبع الذي تنفزع منه كل هذه المظاهر والقوانين التي تتحكم فيها، وهي بعبارة أخرى كما يظهر من أصل اشتقاق اسمها اليوناني «علم الحفظ» وهي الوسيط بين الانسان والطبيعة، بين الفكر المتجرد والاحساس المادي، بين العلم الباطني والعلم الخارجي الظاهر؛ ولذلك كانت ولن تزال دائماً على رأس العلوم، وهي كذلك من الصفات اللازمة للدين الصحيح؛ فالسيحية وحدها هي التي تظهرها للانسان في ثوبها الحقيقي، وتضعها في مكانها اللائق بها، والمسيحي هو وحده الذي يستطيع أن يقدرها حق قدرها، لأنه يرى وحدة الآله الواحد الأحد في كل مظاهر الطبيعة المتنيرة» (٢)

وبعد أن يسترسل في هذا الأسلوب الذي يعزز حكمه عليها بقوله: «فالرياضة إذن تتوسط بين العلوم والمعارف وتوحيدها وتولدها، وليست الرياضة بعلم جامد ولا مادة محدودة، وليست بمجموعة صيغ منفردة، ولا حقائق متفرقة عثر الانسان على كل واحدة منها منفردة بمحض الصدفة؛ ولكنها وحدة حية تتجدد باستمرار، وتتبع تطور العقل البشري، وتتمشى مع نموه بالنسبة للوحدة والتعدد، ومن ناحية التأمل والتبصر؛ ولكنها مع هذا ليست من الحياة القائمة

(١) راجع العدد العاشر من «المعرفة» (٢) كتاب تربية الانسان طبعة أبلتون.

أو شيئاً مستمداً منها ، وإنما هي الحياة بذاتها « (١) »
أما عن اللغة فقد تحايل تحايلاً غريباً بقوله : « إن اللغة هي المظهر الخارجى الإيجابى الفعال
للمشاعر الباطنة » مدللاً على هذا بأن أصل كلمة الكلام (SPRECHEN) مشتقة من كلى
(S—PRECHEN) أى تجزء الذات وانفصالها وإظهار الخفى عن طريق الظاهر ، ولم يقل بهذا
أحد على الإطلاق من علماء اشتقاق اللغة الألمانية .

ثم يستمر فى قوله : « كما أن الطبيعة هي مظهر العقل الالهى ، فكذلك اللغة هي مظهر العقل
الانسانى ، بل هي مظهر الانسان والطبيعة وروح الله مجتمعة معاً ، ولها صفات العلوم الرياضية
والطبيعية من حيث الحركة والحياة ؛ فهي فى حروفها وسوا كتبها وكلماتها تكشف الصفات
والعلاقات الأساسية بين الطبيعة والروح ، كذلك إخراج الاصوات يتبع قوانين محدودة
ثابتة : رياضية وفسولوجية وفيزيقية وسيكولوجية » (٢)

ثم هو يعتبر اللغات : الألمانية ، واليونانية ، واللاتينية ، بمثابة الروح والحياة والبدن (٣) .
وهو فى هذا أشد ما يكون تعصباً للغة الأصلية ؛ ويقول عن الابدادية قولاً خيالياً غريباً ، منها
أنها توصل الانسان إلى أعلى درجات الكمال الارضى وأكملها ، وعن الكتابة : إنها أسمى مظهر
لشعور الحر الفعال . (٤)

ويرتاح (فروبل) إلى نتائج هذه ، فيما يلى إلا أن يحشر الفنون فى العلوم السابقة حشراً فيقول :
« إنها تمس الرياضيات من ناحية واللغة من ناحية ثانية ثم الدين من ناحية أخرى » (٥) ؛ ولكنه
يتنبه إلى تعذر شرح هذا الارتباط بيداجوجياً ، أو الطريق التى يسلكها المعلم لايجاد هذا
الربط ، أو الفائدة التى يجنيها المتعلم منها ، فيقول فى الصفحة التالية : « ولكن مع هذا كله -
أى الارتباط الثابت فى نظره - فإن الفنون يجب أن تعلم لذاتها » ثم يلخص كلامه كله فى هذا
الصدد بقوله : « لما كان من الضرورى أن يكشف الله سر وجوده للناس كشفاً كاملاً لا لبس
فيه ولا غموض ، كان لزاماً أن يكون هذا بالكيفية الثلاثية عن طريق الرياضة واللغة والفنون ،
فتكون هذه الثلاث وحدة كاملة ، تتطلب معرفة إحداها معرفة الأخرى » .

فأنت ترى من كل هذا أنه أخرج العلوم عن معناها الحقيقى وفائدتها العملية ، ونظر لها من
ناحية الدين الممثل لطبيعة الله ، والفكر الممثل لطبيعة العقل البشرى ، والنظام الممثل لطبيعة
الكائنات .

المدرسة الانجليزية :

وانتقل المذهب من المانيا إلى انجلترا فتأثر به فلاسفتهم ورجال التربية فيهم ، فتجد (جون
استورم) يبالغ فى قيمة اللغتين اليونانية واللاتينية أشد مبالغة ؛ و (أشام) البيداجوجى

(١) صحيفة ١٠٤ و ١٠٦ (٢) صحيفة ٢١١ (٣) صحيفة ٢١٧ (٤) صحيفة ٢٢٥ (٥) صحيفة ٢٢٦

يضع اليونانية فوق جميع العلوم ويشير بجعلها أساساً للتعليم في جميع المدارس، حتى (ملتون) العظيم يصرح في خطابه إلى (صمويل هارتليب) بأنه يرى التعليم مستحيلاً بدونها، واقتنع اساتذة كلية (أوين) بهذا الرأي، فنفذوه في مدارسهم وساروا عليه مدة طويلة.

وكذلك نحى الفيلسوف العظيم (جون لوك) نحو (منتاجيو) ونادى بتفضيل اللاتينية وجعلها أساساً عاماً للتعليم، وأشار بأن يعطى التلاميذ في كل يوم شيئاً من اللاتينية يحفظونه عن ظهر قلب، ولو لم يفهموا معناها، حتى تقوى فيهم الإرادة والذكاء والقدرة على حل المشكلات (١).

حتى الفيلسوف (هربرت سبنسر) لم يسلم من الوقوع في هذا الخطأ، فقد صرح في الكثير من آرائه ومؤلفاته عن التربية بأن دراسة بعض العلوم تقوى العقل على وجه الاجمال وتصل ملكات النفس.

الجزويت :

اقتبس الجزويت في فرنسا تعاليم « ستورم » ولكنهم شوهوها وغالوا في تطبيقها، فاقترضوا على دراسة اللاتينية وما يتعلق بها في السنين الثلاث الأولى من مدارسهم كعلم أساسي، وزودوها بشيء قليل من اليونانية واللاهوت؛ وكان عمادهم في التعليم: الذاكرة الصماء، والحفظ عن ظهر قلب، أما باقي العلوم فكانت اختيارية يتعلمها الطلبة من تلقاء أنفسهم في أوقات فراغهم وأجازاتهم السنوية لتقوية الملاحظة ليس غير.

القرن التاسع عشر :

جاء القرن التاسع عشر بزعمته المتطرفة للتجديد والتبديل، وإعادة النظر في كل النظم والتعاليم القديمة، فتمص مذهب الملكات من جديد، بعد أن كادت تقضى عليه حملات الفلاسفة أنفسهم، والحديثين من علماء النفس التجريبي، وتشبث أنصارهم بمذهب تهذيب العقل، ورأوا أن يكسبوا كلامهم صبغة علمية بيداغوجية فزعموا أن القدرة التي يكسبها العقل بمرانه على علم من العلوم أو عمل عقلي، خاص تنتقل إلى العلوم أو القوى العقلية الأخرى، لأن العقل بهذا المران الخاص يكتسب المرونة، فيعمم ما يكتسبه من قوة ونشاط في ناحية خاصة على باقي النواحي. ويلخص العالم الأمريكي (ثورن دايك) مزاعمه في النقاط الآتية :-

١ - إن التحسن الناتج من تمرين العقل، من تكرار عمل معين، ينتقل إلى أعمال أخرى قد تخالف نوع العمل الأول الذي تمرن عليه.

٢ - إن التحسن الناتج من دراسة علوم معينة تقوى الملكات لدرجة كبيرة الأثر.

٣ - إن للعلوم جميعها أثراً تهذيبياً، وإن اختلفت القيم النسبية لهذه الآثار اختلافًا بيننا، ولما

(١) أفكار في التربية. تحرير كويك. طبعة كمبرج سنة ١٨٨٦

كانت الرياضيات واللغات هي أقوى العلوم في نظرهم ، فقد حددوا لكل علم قيمة تهذيبية خاصة منسوبة إلى هاتين المجموعتين، تبين نسبة ماتحدثه هذه العلوم من تحسين القوى العقلية العامة إلى الرياضيات واللغات . (١)

ونكتفي في هذا الصدد بالجدول الآتي :

الحساب ومسك الدفاتر ٢٠٠٩ - الكيمياء والطبيعة والعلوم العامة ٢٠٠٦ - الهندسة والجبر وحساب المثلثات ٢٠٠٣ - اللاتيني والفرنسي ١٠٠٦ - التربية البدنية ٠٧٠٠ - التاريخ والموسيقى والرسم صفر .

ونشط رجال علم النفس التجريبي لبحث هذه المزاعم بحثا عمليا بحثا ، فوجد بعض المتقدمين منهم شيئا من الصحة ، فتجد أن (كوكس) مثلا استنتج من بحثه الذي قدمه للدكتوراه أن تقدم طلبة السنة الأولى الذين يدرسون اللاتينية في الهجاء الانجليزي بلغ مرة ونصف مرة من تقدم الآخرين المساويين لهم؛ من الذين لا يدرسون اللاتينية ، وأنه من السهل أن ترتفع هذه النسبة إلى ثلاث مرات .

كذلك وجد (نيومان) و (أيرت) من النتائج ما حملهما على القول بأن الذكاء تقوى بتمرينها على أى علم من العلوم وخصوصا باللغات والعلوم البحتة ، أما الرياضة فلها تقوى الذكاء، لأن المنطق الرياضى المكتسب من هذه الناحية ينتقل إلى كل النواحي الأخرى ، وكأن (نيومان) قد اطمأن إلى نتائج هذه، فانتقل بمذهب الملكات من دائرة التفكير إلى دائرة الإرادة فقال: إن العلوم بما فيها التربية البدنية لا تقوى العقل فقط، ولكنها تقوى الاتباه وتخلق الإرادة؛ ولكن الثقة بنتائج هذه المباحث المتقدمة ضعيفة إلى حد التشكك فيها بالنسبة لقلّة عدد الأشخاص الذين أجروا عليها تجاربهم، والطرق الرياضية التي استخدموها للوصول إلى هذه النتائج ، أما نتائج المعاصرين لهم والمتأخرين عنهم، التي أجريت فيها التجارب على عدد كبير من الناس، واستخدمت فيها الطرق الرياضية الصحيحة، فتكاد تكون قاطعة لا تقبل الشك، وكلها تقضى ببطان هذه المزاعم؛ فقد وجد (كيربي) مثلا أن دراسة اللاتينية لا تؤثر أى تأثير في تعلم اللغة الفرنسية، وهي لغة اللاتينية؛ أكثر من الإنجليزية. وكذلك وجد (بروكر) أن تقوية المدارك والعادات المنظمة والتفكير الصحيح وغير ذلك، مما ينسب لمجرد دراسة اللاتينية، يرجع إلى عوامل أخرى لا دخل لللاتينية فيها.

وغير هذا مئات من التجارب التي قام بها العلماء الجتهدون في كل زعم من مزاعم هذا المبدأ، أو في كل ناحية قد يكون له دخل فيها؛ وعسانا نوفق إلى تناول هذا الموضوع في فرصة أخرى ، ولكن يكفي أن نقرر هنا أن نظرنا الآن إلى العلوم المدرسية تختلف اختلافاً كلياً

[1] THORNDIKE-MENTAL DISCIPLINE— J.ED.PSY.15-1424-P.1-22,83-89.

عن نظرة السابقين ، فلكل علم قيمته النفعية، وقيمته التثقيفية العامة، كما أن له قيمته التهديبية، ولذلك لا ينبغي أن يدرس علم في مدرسة، أو يدرج في منح نوع معين من التعليم، لمجرد اعتقادنا أو اقتناعنا، عن طريق الملاحظة الشخصية والتجربة، أنه يقوى ملكة معينة؛ وإنما يكون المعول على قيمته التثقيفية في ذاته، إن كانت لا تتم ثقافة المرء بدونه، أو فائدته في الحياة العملية، ونحن نرى من الجدول التالي أن الهندسة، ولو أن قيمتها التهديبية عشرون، والأشغال اليدوية اثني عشر فقط، إلا أن الثانية كعلم مدرسي أفضل من الأولى بكثير، لأن مجموع قيمها الثلاث ثلاث وأربعون، في حين أن مجموع الهندسة ثمانية وثلاثون:

العلم	القيمة التهديبية	النفعية	التثقيفية	المجموع
هندسة	٢٠	١٠	٨	٣٨
جبر	١٩	٩	٨	٣٦
لاتيني	١٧	١٠	١٤	٤١
طبيعة	١٧	١٨	١٢	٤٧
العاب رياضية	١٧	١٢	٧	٣٦
كيمياء	١٣	١٩	١١	٤٣
أشغال يدوية	١٢	٢٣	١٠	٤٥
رسم	١٠	١١	١٥	٣٦ (١)

ولكن على الرغم من اقتناع علماء النفس والتربية الحديثين بفساد المذهبين : مذهب الملكات العقلية ومذهب التهذيب أو انتقال التحسين ، فلا يزال الكثير من أفاضل الناس والعلماء وأساتذة الجامعات والمدرسين يقولون بقول القدماء ، كأن المذهب القديم لا يجاهد في سبيل حفظ كيانه ، كما تجاهد الكائنات الحية في معترك الحياة ، فتبقى منه بقية في عقول الناس، ولو كجهد آراء فردية بعد أن كانت حقائق علمية مزعومة؛ وقد أجريت مباحث كثيرة في هذا الموضوع ، ووجهت الأسئلة إلى عدد عظيم من رجال التعليم وغيره، نكتفى منها بهذا القدر القليل :

- ١- يقول (توماس) إن رأي في القيمة التهديبية للعلوم لم يتغير، ولن يتغير، وأنا موقن من خبرتي الطويلة للتعليم، أن بعض العلوم تشحذ ذهن التلاميذ، وتساعد على التفكير الصحيح، وخصوصاً اليوناني واللاتيني ثم الرياضيات (٢)
- ٢- وجه الدكتور (هارفي ويل) إلى أعضاء مؤتمر الأدبيات الذي انعقد في (متشيجان)

[1] STARCH—THE ESTIMATED VALUE OF SCHOOL SUBJECTS--SCHOOL & SOCIETY.No5-P. 59-60

[2] THOMAS—OLD FASHION DISCIPLINE—G.OF THE ASS.OF COLLEGIATE ALUMNAE—MAY.1917.P. 588

سنة ١٩٠٩ سؤالا عن أهمية اللغات القديمة، فوصلته ردود خمسة وثلاثين عضواً: أربعة عشر منها فضل أصحابها دراسة اللاتينية واليونانية، وأربعة فضلوا اللاتينية ورفضوا اليونانية، وسبعة عشر تشككوا في الاثنين.

٣ - بينما يقول الأستاذ (بيجلو) إن الرياضيات واللغات أداة التفكير العامي الصحيح، يقول الأستاذ (نيف) من جامعة شيكاغو: إنه يأسف لوقت الذي أضاعه في دراسة اللاتينية واليونانية.

٤ - يوصى الكثيرون من رجال الأعمال الحرة بتعلم اللغات القديمة: فالستر (وليم سلون) من كبار تجار نيويورك يقول بأن اللغات القديمة تؤهل الانسان لأن يكون تاجراً عظيماً، والمستر (فoster) عضو مجلس النواب الأمريكي يقول: إنها ضرورية لكل محام ونائب برلماني.

٥ - وكذلك جند ثلاثمائة من أعضاء مؤتمر الآداب، الذي عقد بجامعة برستون سنة ١٩١٧ دراسة اللغات القديمة وآدابها. ولكننا مع هذا كله يكفي أن نقول مع الأستاذ (ستارش) إن الآراء الفردية لا قيمة لها في موضوع علمي كهذا، لأن آراء الناس عامة والذين لم يدرسوا الفلك على الخصوص، عن شكل الأرض لن تغير من شكل الأرض الحقيقي، وإن هذا النوع من الاستدلال في القضايا العلمية لمن الخطورة بمكان.

٦ - وليس المدرسون بأقل تأثراً من العامة بمذهب التهذيب، فقد سأل (ثورنديك) مائة مدرس عن ترتيب العلوم حسب قيمتها التهذيبية في نظرهم، فقال ثمانية منهم: الفلسفة، وعشرة: الانشاء الانجليزي، وستة عشر: الرياضة، وسبعة: الالعب الرياضية؛ وهو يفتقر لهم هذا بقوله إن المدارس ما دامت تدار بالآراء الفردية، فرأى جماعة من المدرسين أفضل من رى مدرس واحد (وإن كانت كلها تخالف العلم) على أن هذه الآراء كلها يظهر فيها التحيز الشنيع، لأن كل مدرس وضع العلم الذي يدرسه على رأس القائمة.

٧ - وتتلخص مزاعم مدرسي اللغات عن قيمة الأجرومية التهذيبية في أنهما: (أ) تهذب العقل (ب) تعد التلاميذ لدراسة اللغات الأخرى (ج) تجعل التلميذ متمكناً من مفردات اللغة (د) تصلح لغة المتعلم (هـ) أنها مفتاح الآيات.

ونحن وإن كنا نقبل بعض هذه المزاعم في شيء من التحفظ، فإنا نرفض بتاتا تقرير لجنة العشرة التي ألفت سنة ١٨٩٣ لدراسة الأجرومية، القائل بأن فائدة الأجرومية هي في تقوية التفكير لا في القراءة والكتابة، وكذلك المزاعم التي لخصها (برجز) كما يأتي: « إن قواعد اللغة تساعد على ملاحظة أوجه التشابه، والتضاد، وقد التعاريف من الناحية المنطقية، والوصول إلى التعاريف الصحيحة، وتقوية التفكير، والتعليل، والحكم، والتريث فيه، وتطبيقه في علوم أخرى

كالرياضات وغير هذا من المزايم والدعاوى العريضة التي لا يقول بها أى مدرس حديث من
مدرسى اللغات (١)

٨- أما العلوم فزاعمهم فيها تتلخص فيما يلى :

- (أ) إنها تنمى عادات خاصة عظيمة القيمة كالتفكير والنظام والعمل الدقيق .
(ب) تساعد على تحصيل المعلومات النافعة عن طريق الدراسة المنظمة والتدريب .
(ج) تكسب المبادئ العالية بما تبثه في نفوس التلاميذ من رغبة في تلمس مظاهر الطبيعة
بأبصارهم والاتصال بها مباشرة .
(د) تساعد على حل المسائل غير العلمية، وتذليل الصعوبات وتحقيق الأغراض السامية .
(هـ) تربي ملكة الذوق وتقدير الجمال وحب الانسجام وإدراك الوحدة والنظام في الطبيعة .
(و) تقوى التفكير الفلسفى والعلمى .
(ز) وأخيراً تربي الدقة في الملاحظة والأمانة في التعبير .
وحكمتنا على هذه الدعاوى العريضة هو نفس حكمتنا على سابقتها .

ومن الغريب أن يشير بعض نظار المدارس المحترمة في إنجلترا وأمريكا بزيادة حصص اللاتينى،
وينفذوا هذه الفكرة بالفعل في مدارسهم، كما فعل (كلارك) والبعض الآخر يفعل هذا في الهندسة،
لأن هذه العلوم— في نظرهم— أفضل العلوم، أو لأن دراستها تقوى العقل في جميع النواحي،
وتعود الانسان الصبر والجلد والدقة في العمل، حتى قال بعضهم بضرورة تعليم لغة صعبة كالروسية
مثلا في المدارس، لا لقيمتها الفعلية، وإنما لتهديبها للعقل كما فعل (بسمارك) ، أو يفضلها على
الفرنسية لسهولة تعلمها كما فعل (تارفر) ، حتى أساتذة كبريدج العلماء الفطاحل كانوا إلى عهد قريب
جداً ينادون بضرورة تدريس اللغات القديمة تدريساً وافياً، لأنها تهدب العقل، ولو كانت الطريقة
التي تدرس بها آلية، ولذلك تجد جامعة كمبريدج على رأس الجامعات التي تعنى بتدريس اللغات
أكثر من باقي الفروع الأخرى .

وخلاصة هذا البحث: أن أمثال هذه الأقوال وغيرها مما يدين به الكثير من المدرسين
والمربين وواضعى البرامج في مصر، لم يخرج عن حد الزعم، وليس لها أى نصيب من الصحة،
فمن الواجب أن لا تدرس العلوم في مدارسنا المصرية، أو توضع المناهج محشوة بمختلف المواد،
لمجرد اعتقاد واضعى هذه البرامج، ومدرسى هذه العلوم أنها أفضل من سواها لتقوية الملكات
العقلية، وتهديب العقل على وجه العموم، ومن الواجب أن تقدر العلوم لقيمتها العملية أولاً، ثم
التثقيفية إذا استلزم الأمر، أما التهذيبية فلا .

محمد مظهر سعيد